من ايام الرعب

انيسة

قصة بقلم يوسف الشاروني

كانت الفتيات الصغيرات جالسات يحدقن في مدرستهن العجوز وهي تقص عليهن قصة يهوذا ، وكانت تصف لهن كيف كان المسيح يحب تلاميذه جميعاً كما تحبكن امهاتكن ايتها الفتيات ...

وكانت انيسة عبد الملاك اكثر هؤلاء الصغيرات تحديقاً وانصاتاً ، فقد كانت من اسرة من اقباط مصر المتمسكين بتعاليم الدين تمسكاً شديداً ، يأخذ والدها نفسه به كما يأخذ به افراد اسرته جميعاً ، يؤدي الشعائر الدينية على أكمل وجه ، فيصطحب اسرته صباح كل احد ليؤدي فروض العبادة في الكنيسة ، لا يفوتهم صيام كبير أو صغير ، كما كانت له عادة الاجتماع بأفراد اسرته صباح كل يوم يصلي بهم ويطلب من الله المعونة وعدم الخطأ فيما يؤدونه أثناء النهار . وهي عادة أخذ بها نفسه قبل الزواج ، ثم اشرك فيها زوجته فيما بعد وظل محافظاً عليها حتى بعد ان ازدادت الاسرة وأصبحت تتكون من خمسة اشخاص . كذلك كان يغمض عينيه كلما جلست الاسرة الى المائدة يذكّر الله انه لم ينس الفقراء والمساكين رغم ما امامه من طعام ، بينما صغيرته انيسة – وكانت أصغر أفراد الاسرة – متلهفة على الطعام تود لو ينتهي ابوها من صلاته بأسرع ما يكون لتخطف اللقمات الى فمها الصغير . وفي كل مساء كانوا يجتمعون مرة أخرى يرتلون معاً ترتيلة مسائية ، حتى اذا وصلوا إلى هذين البيتين :

ان أتى في الليل سقم أو دنا أمر رهيب
عز قلبي يا سروري واشف نفسي يا طبيب

احست انيسة بالرهبة والفزع من هذا الليل الذي تقبل عليه ، وشعرت انها تدخل في مغامرة لا تدري نتيجتها ، ثم ما تلبث ان تتجه نحو فراشها حيث تنحني لتصلي صلاة حفظتها عن ظهر قلب تطلب من الله ان يحميها من « الحيات والعقارب وكل قوات الشرير » وهي جملة تدرك معناها جملة وان لم تدرك معناها لفظاً لفظاً – شأنها في ذلك شأن الترتيلة – ولهذا كانت تتصور الليل مليئاً بالعقارب والثعابين واللصوص، ولن ينقذها من كل هذه الاهوال سوى تلك التمتمات التي يجب ان تتلفظ بها والا حدث ما لا تحمد عقباه .

وكانت المدرسة تتحدث الآن عن قلب يهوذا الاسود وكيف أنه أحب شيئاً آخر أكثر من المسيح، فقد كان يحب النقود . وقد عرض عليه الاشرار الذين يسكن الشيطان قلوبهم ان يبيع المسيح ويقبض ثمنه ليشتري به منزلاً كبيراً له وعروسة كذلك لابنته الصغيرة سالوما .

وتذكرت انيسة انها سمعت امثال هذه القصة من والدها عشرات المرات، فالأمر لم يكن يقتصر في منزلها على مجرد هذه الشعائر بل كان يتغلغل الى كل صغيرة وكبيرة من حياة الاسرة . فلقد لقنوها بهذه الوسائل المختلفة – وفي هذا العمر المبكر – أن هناك صدقاً وكذباً ، أن هناك خيراً وشراً، أن هناك ملائكة وأبالسة ، أن هناك نعيماً وجحيماً، أن هناك أبيض وأسود ، وعرفوها أين يجب أن تكون ، وما ينتظرها ان هي انحرفت . فقد حدث ذات مرة أن أقبلت الصغيرة من مدرستها تتلفظ بكلمة سمعتها ذلك اليوم من زميلة لها ، وكانت معجبة بمخارج الحروف وبقدرتها على تحريك لسانها وشفتيها بلفظ جديد وان لم تفقه له كبير معنى ، فما ان لفظتها حتى التفتت اليها امها منزعجة تسألها عمن علمها التلفظ بتلك الكلمة ، فلما اجابتها بأنها زميلتها صفاء امرتها ألا تتفوه بها مرة أخرى لانها كلمة قبيحة ، وان تتجنب معاشرة تلك البنت ، وسرعان ما نسيت البنت هذه النصيحة فكررتها مرة أخرى امام والديها ، فما لبثت الام ان صرخت فيها وهددتها بأنها ستذهب الى « النار حيث يأكلها الدود » إن هي كررت هذا اللفظ ، وحاول الوالد أن يهدىء من سورة الأم حين رأى ابنته تبكي ، لكنه حين علم بأنه سبق عليها التنبيه انضم الى الام مقرعاً ابنته حتى احست انيسة انها كائن بائس لا نصير له ، وان النار والدود ينتظرانها ما دام والداها غير راضيين عنها .

وعادت المدرسة تقول إن الأشرار تركوا يهوذا ولكن الشيطان بقي يوسوس في أذنه (ومثلت المدرسة شكل الشيطان وهو يوسوس في أذن يهوذا) وضحكت بعض التلميذات ، ولكن اكثرهن ظللن واجمات تنطق وجوههن بالخوف والاشفاق على ما يظر المسيح على يد يهوذا . والمدرسة تقص كيف انتصر الشيطان واتفق معه يهوذا على ان يسلم المسيح للاعداء . ولما كان الاعداء لا يعرفون المسيح فانه سيتقدم نحوه من دون التلامذة ويقبله ، فيظهر امام المسيح بمظهر الحميم ويعرف الاعداء انه الشخص الذي يريدونه .

وتذكرت انيسة ان الكذب انواع ، وانها مهما تحايلنا فان الله يكتشف أين كذبتنا . لقد كان يخلو لها أن تتخيل احياناً ما لا وجود له ثم تقصه على والديها أو أخويها كأنما رأته رأي العيان . وكان والداها يدركان – بما هما عليه من ثقافة – أن هذا أمر طبيعي ينشط به الطفل ملكة التخيل لديه ، فلم يكونا يفسرانه على انه كذب ، ولكن والدها قص – في أحد الاجتماعات العائلية الدينية الصباحية – قصة الزوجين حنانيا وسفيرا اللذين ورد ذكرهما في الانجيل ، وكيف أقنع الزوج على بطرس تلميذ المسيح وأخبره بأنه باع ما يملكه ووهب كل ثمنه الكنيسة، ثم قدم له مقداراً من المال ، ولكن بطرس أدرك أن حنانيا لم يحضر له كل الثمن وواجهه بذلك فسقط الكذاب ميتاً على الارض ، وما لبثت زوجه أن أقبلت بغير ان تعرف ما حدث لزوجها واكدت ان المبلغ الذى أحضره زوجها هو ثمن ما باعاه حقاً . فقال لها بطرس إن الذين دفنوا زوجك سيدفنونك ايضاً . ومن يومها تعلمت انيسة أن كل من يقول غير الحقيقة يقتله الرب ، ويكون مصيره مصير حنانيا وزوجه سفيرا . ومع ذلك فقد كانت كثيراً ما تقص قصصاً لم تحدث . وعندما كانت صغيرة جداً لم تكن تميز بين الحقيقة والخيال ولكنها بعد أن كبرت قليلاً واستمرت على عادتها كانت تدرك فعلتها لكن بعد أن تكون روت كل ما لديها فتذهب الى النوم خائفة تحس انها ستقتل في كل لحظة وأنها لن تستيقظ ابداً من نعاسها إن هي استغرقت فيه . وهكذا وقر في نفس أنيسة صورة العقاب المخيف سواء على شكل موت أم على شكل نار لا تطفأ ودود لا يموت أم على شكل عين إلهية لا تنام ؛ وذلك لكل من يكذب أو يشتم أو يحلف ، ولم يكن الأمر يخلو من أن تكون هي واحدة من هؤلاء ، بين حين وحين عندما يغرر بها الشيطان .

وقبض أصدقاء الشيطان على المسيح وانصرف الجميع ، وأصبح يهوذا وبيده النقود يحدق فيها ، وهنا جاءه الشيطان وهو يضحك ضحكاً شديداً هذه المرة ويخرج لسانه ليهوذا صائحاً بصوت مستنكر (وزاد وجه المدرسة تجعيداً وهي تصيح فعلاً مقلدة صوت الشيطان) : ها ها لقد ضحكت عليك

أيها العبيط وجعلتك تبيع الصديق الذي أحبك بنقود ستنفقها ولا يتبقى منها شيء معك بعد قليل ، ولكن سيبقى في قلبك الاسود هذه الفعلة الشنيعة، ولن تستطيع أن تكلم بعد اليوم أبداً تلاميذ المسيح الآخرين مثل بطرس ويوحنا ولوقا . وتلفت يهوذا حوله يريد أن يضرب ذلك الذي مكر به وخدعه ، لكن الشيطان انحنى بسرعة وتفادى يهوذا ثم تعلق بقفاه ،فكان يهوذا يحس به ولا يراه ، يسمعه ولا يستطيع أن يمسك بـــه (واقشعرت أصغر الفتيات سناً مثل فهيمة وإنصاف وشفيقة وليزا وأنيسة)

وكانت أنيسة تعاني أزمة نفسية عنيفة ، فمنذ أيام اكتشفت أسرتها ذات صباح أن يمامة قد صنعت لها عشاً عـــلى قاعدة شباك المطبخ ، وخلف صينية القلل تماماً ، وقد تفاءلت الام بوجود هذا الطائر الوديع (ويبدو أن ذكره قد أتى في آية من آيات الانجيل) فحرمت عـــلى اولادهـــا ان يعبثوا بهـــذا العش ، وافهمتهم ان اليمامة ستبيض وشيكاً وتضع افراخـــاً صغاراً، وحرام الا يوفروا الهدوء اللازم للام واطفالها. وظل الاطفال يراقبون العش باهتمام كل يوم حتى شاهدوا – في غياب اليمامة وامهم ايضاً – بيضتين صغيرتـين غارقتـين في اعشاب العش القصيرة الجافة المتماسكة ، وقد فرحوا برؤية البيض فرحاً عظيما وعدوه كأنما هو انتصار لهم او كأنمـــا هو نتيجة مجهودهم ، وظـــلوا يترقبون يوماً بعد يوم، إفراخ هذا البيض لينعموا برؤيـــة طائرين صغيرين لم يشاهدوا مثلهما في حياتهم .

وبالامس مساء ، وقبل العشاء، كانت الاسرة تجلس في شرفة المـــنزل في الطرف الشمالي منه يستمتع افرادها بالهواء الرطب المنعش وهم يتسامرون ، وقد جلس على مبعدة منهم خادمهم عجيب، وهو صبي لا يتجاوز الحادية عشرة كان قد احضره بواب المنزل من قريته كفر النصارى ليشق طريقه ويجرب حظه في مدينة مزدحمة كالقاهرة ، وكان الان قد انهكه عمل النهار ، فانزوى على الارض في ركن الشرفة شبه نائم . وفجأة تسللت انيسة من بين الجماعة معللة نفسها برغبتها في قليل من الماء ، والواقع انها لم تكن ظمأى الى الماء بقدر ظمئها الى رؤية ما تم في امر البيضتين ، فاتجهت على اطراف اصابعها الى المطبخ ، وهناك سحبت مقعداً ووضعتـــه بجانب الشباك ، ثم اعتلته ونظرت خلف القلل . كانت اليمامة هناك ، لكنها رأت – و بالفرحة ما رأت – فرخاً صغيراً ضئيل الحجم يفتح فمه بجوار امـــه كأنما يبحث عن شيء ، اما البيضة الاخرى فيبدو انها كانت ما تزال كما هي. ولم يفزعها وجود اليمامة – التي كانت الآن نائمة – ولا هو غير من خطتها التي صممت عليها ، بل مدت يدها تريد ان تخطف الفرخ الصغـــير لتمسكه وتتأمله عن قرب ، وفزعت الأم من نومها وحاقت في عنف بعيداً . حتى تطاير منها الريش ، وليست تدري انيسة حتى الآن ، هل وقع العش وتناثر بسببها أم بسبب طيران اليمامة المفاجيء ، كل ما تعيه هو انها وجدت امامها وعلى بلاط المطبخ الابيض بعض اعشاب العش المتناثرة ، ثم البيضة الأخرى وقد تكسرت فظهر من داخلها فرخ آخر اقل حجماً ينبض بالحياة وان كانت قطرتان من دمه تنتثران على جلده الشاحب المنحول . اما الفرخ الآخر فيبدو انه سقط خارج النافذة في فراغ المنـــور . وفزعت الصغيرة مما رأت ، وجرت الى الخارج، فلما اطمأنت الى ان الجميـــع غافلون عنها ، ولم يتنبه واحـــد منهم الى ما حدث ، اطفأت نور المطبخ ثم تسللت الى الشرفة حيث كان والداهـــا وأخواها ما زالوا يتسامرون ، بينما كان الخادم الصغير يغط الآن في نوم عميق . ومالبثت الام ان صـــاحت « يا عجيب » لكي يستيقظ ، ثم طلبت منه ان يذهب الى المطبخ ليأتيها بكوب ماء ، وكأنما تذكر الجميع فجأة ظمأهم فطلبوا بالتتالي نفس الطلب ، ولهذا عدلت الأم طلبهـــا وأمرت خادمها ان يحضر القلة نفسها ، واتجه الصبي نحو المطبخ، لكنه حين اضاء النور لاحـــظ الفرخ الصغير الملقى عـــلى الارض وهو ما يزال ملتصقاً بقشرته يفتح منقاره كأنمـــا يلهث . وتأمل الصبي المنظر العجيب مندهشاً ثم قاده حب الاستطلاع الى ان يمسه بيده وجلس الطفـــل يداعب الفرخ الذي كان يقـــاوم الموت ، ونسي ما كلفته به سيدته حتى طالت غيبته ، فصرخت تنادي عليه ، لكنه كان مشغولاً باكتشافه الرائع ، لهذا قامت بنفسها لترى ماذا يفعل الصبي، ولدهشتها ، وجدته منحنياً على الارض وبيده الفرخ وقد تدلت رقبته واسلم انفاسه بينما تناثر قشر البيضة واعشاب العش الجافة على ارض المطبخ فصاحت السيـــدة في دهشة « باسم الصليب ! ماذا تفعل ايها ألولد ؟ » وفزع الصبي بينما انطلقت السيدة صارخة لماذا فعلت هذا ؟ لمـــاذا اقتربت من العش ايها المجرم الذي لا قلب له ؟ » واقبل على صراخها افراد الاسرة وأنيسة من بينهم وصاحت الاخت الكبرى نصيفه « باسم الآب والابن والروح القدس ماذا حدث ؟»– والخادم يزعق ويحلف بانه لم يقترب من العش بل وجد الفرخ ملقى عـــلى الارض ولما

مُسابقة «الآداب» الشِعْرِيّة

تدعو « الآداب » شعراء العربية في مختلف اقطارهم الى المشاركة في مسابقة شعرية تتناول الموضوعات التالية :

اولاً – عودة اللاجئين

ثانياً – الوحدة العربية

ثالثاً – المرأة في المجتمع العربي

رابعاً – حرب على الاستعمار

خامساً – حرب على الاقطاع

الشروط

١ – يحق للشاعر ان يشترك في اكثر من موضوع واحد

٢ – يحسن بالقصيدة الا تتجاوز مئة بيت ولا تقل عن ثلاثين

٣ – لا ضرورة لوضع اسم مستعار للشاعر

٤ – تنتهي المسابقة في آخر تشرين الاول القادم ١٩٥٤.

الجوائز

الاولى – ٣٠٠ ليرة لبنانية او ما يعادلها

الثانية – ١٢٥ » » »

الثالثة – ٧٥ » » »

كانت له سوابق في الكذب فان السيدة انهالت عليه ضرباً ، وكان كلما حلف كلما ضوعف عقابه . وزعق الابن الاكبر شفيق قائلاً: «اخرس ايها الكذاب » وقال الوالد « اذا قلت الحق سامحناك . » وكان الحق الوحيد هو ان ينسب الى نفسه ما وقع بالعش ، ولكن الولد اصر على انه لم يعبث بشيء ، وأنيسة تستمع الى ما يدور وتلاحظ غضب والديها واخويها الشديد وترتعد خوفاً لا تدري ما عسى ان تكون النهاية . وازاء اصرار الصبي على الانكار التفتت الأم الى اولادها تسألهم ، هل اقترب احدكم من العش؟ وقبل ان تسمع الاجابة من احدهم استمرت تسأل « هل اقتربت من العش يا شفيق ، هل اقتربت يا نصيفه، هل اقتربت يا أنيسة ؟ «وكانت أنيسة لا تملك اختيار اجابتها ، فقد سمعت اختها تقول «لا» واخاها يقول «لا » وبطريقة آلية قالت هي الاخرى « لا » ولا يمكن ان يكون لدى السيدة ام شفيق ابن يكذب ، لهذا انهالت مرة اخرى ضرباً على الولد وهي تقول له :« انك ستعلم أولادنا الكذب». وأنيسة واقفة ترقب ما يحدث ، ! انها لا تحس انها كذبت فحسب ، بل وان بريئاً يعاقب بدلاً منها . وزاد احساسها بثقل الخطيئة حين جلسوا يتناولون العشاء وقد حرموا منه الخادم الكذاب، وهو يبكي صارخاً :«اريد ان اعود الى اهلي، اريد ان اسافر الى بلدي» والاب والام يأمرانه بالصمت . ولم تتناول انيسة الا لقيمات في بطء ، فقد انعدمت شهيتها الى الطعام ، وبزغ في نفسها صراع بين أن تقول الحقيقة وأن تصمت ، وكلما مرت الدقائق وجدت ان فرصة الاعتراف تتضاءل ، ومع ذلك ظلت حزينة حزناً عميقاً ، حتى انها حين رقدت في سريرها عاودها ذلك الخيال المرعب . إنها ان نامت فلن تصحو ابداً ، ستموت كما مات حنانيا وكما ماتت زوجه سفيرا ، ثم تذهب الى النار حيث يأكلها الدود وكانت تفزع لهذه الخواطر فلم تجد الا دموعها تلجأ اليها في محنتها ،فاغرورقت عيناها ، واصداء التراتيل المسائية تملأها رهبة وخوفاً ، وقامت وركعت تكرر صلاتها وتطلب حمايتها من الحيات والعقارب وهي تحس ان احداً لا يسمع منها وان عين الله لا تنظر نحوها الا في غضب مقيت ، وظلت تناوشها هذه الافكار حتى استغرقت اخيراً في النعاس . وعندما قامت في صباح اليوم التالي لم تكن قد نسيت شيئاً مما حدث . لقد وجدت ان عجيباً كنس المطبخ فازال الاعشاب الجافة وقشر البيض والفرخ الميت ، ولكنها رفعت عينيها تبحث عن جريمتها في وجوه والديها واخويها ، ولكنها لم تجد الا ان عجيباً متجهم الوجه يبدو عليه الخوف من كل حركة تتجه نحوه كأنها موجهة لضربه ، والكل ينظرون اليه ، نظرتهم الى الكذاب الخائن الذي حطم عش اليمامة الوادعة ، وهي وحدها التي تعرف الحقيقة ولا تستطيع ان تصرح بها ولا تستطيع كذلك ان تنساها . وهكذا ذهبت في طريقها الى المدرسة وهي تحس بضيق شديد لا تعرف كيف تقضي عليه وتتخلص منه ، فان عين الله التي تراءت لها ليلة الامس تتابعها الآن ولا تستطيع الاختفاء منها ، لا في ثياب اميرة مسحورة (فهي لا تستحق ذلك) ولا في شكل أوزة ولا حتى ارنب ، وكانت عين الله ما تزال تلاحقها وهي جالسة في حصة الدين تستمع الى قصة يهوذا بانتباه شديد وتتلهف لمعرفة مصيره .

واستمرت المدرسة في قصتها ، تروي كيف ان يهوذا لم يستطع ان ينام طوال الليل ، وكيف ان ابنته سالوما كانت تسأله عن العروسة التي وعدها بها ، لكنه لم يجبها بشيء ، وكيف ان الشيطان كان يقفز حوله طوال الوقت بحيث لم يجد طريقة للخلاص الا ان ينتحر بشنق نفسه .

وقالت طفلة في انفعال : احسن .

وسألت اخرى : ما معنى شنق نفسه ؟

فاجابتها زميلة لها : يعني علق حبلاً حول رقبته .

وفجأة رؤيت أنيسة وقد تشنجت اطرافها وصرت باسنانها وهي تبكي بكاء مراً ، واسرعت اليها المدرسة ، وفزعت الطالبات واخذن يبكين بدورهن . وكانت عينا انيسة المحمرتان محدقتين ، رغم ما فيهما من دموع تبحثان هل يمكن ان يكون هناك شيطان يمسك برقبتها .. وكأنما هي تنبه ببكائها هذه المجموعة من الناس ليجتمعوا حولها فتحتمي بهم من «عين الله» . وكان الآن شعر المدرسة الابيض يقف بينها وبين هذه العين مما طمأنها قليلاً . واقبلت ناظرة المدرسة على الهرج والمرج اللذين شاعا في الفصل تسأل عن سر الضجة ، فاخبرتها المدرسة قائلة : لقد كنت اقص قصة يهوذا ، ويبدو ان هذه الطالبة قد تأثرت لمصير المتسيح على يد هذا الخائن فانتابتها هذه النوبة من البكاء . انها الآن احسن قليلاً .

القاهرة

يوسف الشاروني